

## يسوع المصلوب

كتبت يوم الجمعة الحزينة ..... للكاتب جبران خليل جبران

اليوم وفي مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية من رقادها العميق وتقف امام اشباح الاجيال ناظرة بعيون مغلقة بالدموع نحو جبل الجلجلة لترى يسوع الناصري معلقاً على خشبة الصليب ... وعندما تغيب الشمس عن ماتي النهار تعود الإنسانية فترك مصلية امام الاصنام المنتصبه على قمة كل رابية وفي سفح كل جبل.

اليوم تقود الذكرى ارواح المسيحيين من جميع اقطار العالم إلى جوار أورشليم فيقفون هناك صفوفاً صفوفاً قارعين صدورهم، محدقين الى شبح مكلل بالاشواك، باسط ذراعيه أمام اللانهاية، ناظر من وراء حجاب الموت الى اعماق الحياة ... ولكن لا تسدل ستائر الليل على مسارح هذا النهار حتى يعود المسيحيون فيضطجعوا جماعات جماعات في ظلال النسيان بين لحف الجهالة والخمول.

وفي مثل هذا اليوم من كل سنة يترك الفلاسفة كهوفهم المظلمة والمفكرون صوامعهم الباردة والشعراء اوديتهم الخيالية ويقفون جميعهم على جبل عال صامتين متهيئين مصغين إلى صوت فتى يقول لقاتليه: " يا أبته، اغفر لهم لأنهم لا يدرون ما يفعلون " ... ولكن لا تكتف السكينة أصوات النور حتى يعود الفلاسفة والمفكرون والشعراء فيكفون ارواحهم بصفحات الكتب البالية.

إن النساء المشغولات ببهجة الحياة المشغوفات بالحلى والحلل يخرجن اليوم من منازلهن ليشاهدن المرأة الحزينة الواقفة امام الصليب وقوف الشجرة اللينة أمام عواصف الشتاء، ويقتربن منها ليسمعن انينها العميق وغصاتها الأليمة.

أما الفتيان والصبايا الراكضون مع تيار الأيام إلى لا يدرون فيقفون اليوم هنيهة ويلتفتون الى الوراء ليروا الصبية المجدلية تغسل بدموعها قطرات الدماء عن قدمي رجل منتصب بين الأرض والسماء. ولكن عندما تمل عيونهم النظر الى هذا المشهد يتحولون مسرعين ضاحكين.

وفي مثل هذا اليوم من كل سنة تستيقظ الإنسانية بيقظة الربيع وتقف باكية لأوجاع الناصري ثم تطبق أجفانها وتنام نوماً عميقاً. أما الربيع فيظل مستيقظاً متبسماً سائراً حتى يصير صيفاً مذهب الملابس معطر الأذيال.

الإنسانية امرأة يلذ لها البكاء والنحيب على أبطال الأجيال. ولو كانت الإنسانية رجلاً لفرحت بمجدهم وعظمتهم.

الإنسانية طفلة تقف اليوم متأوّهة بجانب الطائر الذبيح ولكنها تخشى الوقوف أمام العاصفة الهائلة التي تهصر بمسيرها الأغصان اليابسة وتجرف بعزمها الأقدار المنتنة.  
الإنسانية ترى يسوع الناصري مولوداً كالفقراء عائشاً كالمساكين مهاناً كالضعفاء مصلوباً كالمجرمين فتبكيه وترثيه وتندبه وهذا كلّ ما تفعله لتكريمه.

منذ تسعة عشر جيلاً والبشر يعبدون الضعف بشخص يسوع، ويسوع كان قوياً ولكنهم لا يفهمون معنى القوة الحقيقية.

ما عاش يسوع مسكيناً خائفاً ولم يمت شاكياً متوجّعاً بل عاش ثائراً وصلباً متمرداً ومات جبّاراً.

لم يكن يسوع طائراً مكسوراً الجناحين بل كان عاصفةً هوجاء تكسر بهبوبها جميع الاجنحة المعوجة.

لم يجئ يسوع من وراء الشفق الأزرق ليجعل الألم رمزاً للحياة بل جاء ليجعل الحياة رمزاً للحق والحريّة.

لم يخف يسوع مضطهديه ولم يخشَ اعداءه ولم يتوجّع أمام قاتليه بل كان حُرّاً على رؤوس الأشهاد جريئاً أمام الظلم والاستبداد، يرى البثور الكريهة فيبضعها، ويسمع الشرّ متكلماً فيخرسه، ويلتقي الرياء فيصرعه.

لم يهبط يسوع من دائرة النور الأعلى ليهدم المنازل ويبني من حجارتها الادييرة والصوامع، ويستهووي الرجال الأشداء ليقودهم قسوساً ورهباناً، بل جاء ليبيث في فضاء هذا العالم روحاً جديدة قويّة تقوّض قوائم العروش المرفوعة على الجماجم وتهدم القصور المتعالية فوق القبور وتسحق الأصنام المنصوبة على أجساد الضعفاء المساكين.

لم يجئ يسوع ليعلمّ الناس بناء الكنائس الشاهقة والمعابد الضخمة في جوار الأكواخ الحقيرة والمنازل الباردة المظلمة، بل جاء ليجعل قلب الإنسان هيكلًا ونفسه مذبحاً وعقله كاهناً.  
هذا ما صنعه يسوع الناصري وهذه هي المبادئ التي صُلب لأجلها مختاراً، ولو عقل البشر لوقفوا اليوم فرحين متهلّلين منشدّين أهازيج الغلبة والانتصار.

وأنت أيّها الجبّار المصلوب، الناظر من أعالي الجلجلة إلى مواكب الأجيال، السامع ضجيج الأمم، الفاهم أحلام الأبدية، أنت على خشبة الصليب المضرجة بالدماء أكثر جلالاً ومهابةً من ألف ملك على ألف عرش في ألف مملكة. بل انت بين النزاع والموت أشدّ هولاً وبطشاً من ألف قائد في ألف جيش في ألف معركة.

أنت بكأبتك أشدّ فرحاً من الربيع بأزهاره، أنت بأوجاعك أهدأ بالاً من الملائكة بسمائها، وانت بين الجالدين أكثر حرية من نور الشمس.

إن إكليل الشوك على رأسك هو أجلّ وأجمل من تاج بهرام، والمسمار في كفّك أسمى وأفخم من صولجان المشتري، وقطرات الدماء على قدميك أسنى لمعاناً من قلائد عشتروت. فسمح هؤلاء الضعفاء الذين ينوحون عليك لأنهم لا يدرون كيف ينوحون على نفوسهم، واغفر لهم لأنهم لا يعلمون أنك صرعت الموت بالموت ووهبت الحياة لمن في القبور.